مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

١

المولد

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

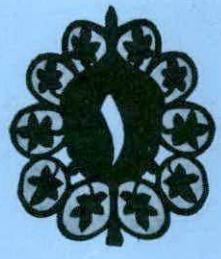

لَمْ يَسْتَقِرَّ دِينُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ بِبِلاَدِ الْعَرَبِ طَوِيلاً فَلَمْ تَلْبَثِ الْوَثَنِيَّةُ أَنْ تَفَشَّتْ بِالْبِلاَدِ ، وَلَمْ يَلْبَثِ النَّاسُ أَنْ أَشْرَكُوا الأَصْنَامَ فى عِبادَتِهِمْ لِلّهِ ، وَجَعَلُوهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَاتَّخَذُوهَا شَفِيعَةً لَهُمْ لَدَيْهِ ، وَالْتَمَسُوا وَسَاطَتَها وَسُؤَالَهَا فى إِخْرَاجِ مَا يَهُمُّهُمْ مِنَ الأُمُورِ .

وَدِينُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوِيمُ ، الَّذِى دَعَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، جَاءَ الاِنْحِرَافُ عَنْهُ – بِإِشْرَاكِ الأَوْثَانِ وَالأَصْنَامِ فِى عِبَادَةِ اللهِ – تَدْرِيجيًّا ، وَفِى سِنِينَ كَثِيرَةٍ ، وَأَجْيَالٍ مُتَتَابِعَةٍ .

وَكانَ مِنْ أَوَّلِ أَسْبابِ هَذَا الإِشْراكِ ، وَمِنْ بَوادِرِ نَشْرِ هَذِهِ الْعِبادَةِ ، مَا كانَ مِنَ النَّاسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لِلْأَحْجارِ الَّتِى تُحِيطُ بِالْكَعْبَةِ بَيْتِ اللهِ الَّذِى بَناهُ إِبْراهِيمُ وَإِسْماعِيلُ بِمَكَّةَ .

فَكانَ إِذا هاجَرَ نَفَرٌ مِنْ بَنِى إِسْماعِيلَ مِنْ مَكَّةَ سَعْياً وَراءَ مَعاشِهِمْ حَمَلُوا مَعَهُمْ حِجارَةً مِنْ أَحْجارِها تَبَرُّكاً بِها ، وَإِذا سافَرَ مُسافِرٌ مِنْهُمْ لأَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ صَحِبَ مَعَهُ فى سَفَرِهِ حَجَراً تَيَمُّناً بِهِ .

ثُمَّ زادُوا فِى ذَلِكَ ، فَكانَ لِكُلِّ قَوْمٍ مِنَ الْأَقْوامِ النَّازِحَةِ عَنْ مَكَّةَ مِنْ بَنِى إِسْماعِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُخْتَلِفِ قَبائِلِ الْعَرَبِ حَجَرٌ مِنْ مَكَّةَ يَطُوفُونَ بِهِ كَما يَطُوفُونَ بِبَيْتِ اللهِ ، وَيُقَدِّسُونَهُ كَما يُقَدِّسُونَ الْحَجَرَ الأَسْوَدَ الَّذِى وَضَعَهُ إِبْراهِيمُ بِبِناءِ الْكَعْبَةِ .

وَهَكَذا رَجَعَتْ عادَةُ تَقْدِيسِ الأَحْجارِ إِلَى بِلادِ الْعَرَبِ ، وَالَّتِى كانَ أَوَّلُ مَنْشَئِها تَقْدِيساً لِلأَحْجارِ الْبُرْكانِيَّةِ الْمُنْصَهِرَةِ مِنْ جَوْفِ الأَرْضِ عَلَى أَنَّها أَحْجارُ نَيازِكَ مُنْقَضَّةٍ مِنْ نُجُومِ السَّماءِ ، وَكانَتِ النُّجُومُ لَها عِنْدَ بَعْضِ

الأَقْوامِ وَالْقَبائِلِ الْقَدِيمَةِ تَقْدِيسٌ وَتَعْظِيمٌ لِما يَتَجَلَّى فِيها مِنْ عَظَمَةِ الْخَالِقِ ، وَسِرِّ قُدْرَتِهِ .

ثُمَّ تَدَرَّجَ بِمُقَدِّسِيها وَبِمُعَظِّمِيهَا الْأَمْرُ ، فَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ .

لِذَا كَانَ لَدَيْهِمْ لِلأَحْجَارِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّها مُتَسَاقِطَةٌ مِنَ النُّجُومِ ، وَمُتَخَلِّفَةٌ مِنَ النَّيَازِكِ ، أَعْظَمُ التَّقْدِيسِ ، وَأَكْبَرُ التَّعْظِيمِ .

وَمَرَّتِ الأَجْيالُ ، فَتَبَلْوَرَتْ عَقِيدَةُ التَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيمِ هَذِهِ ، حَتَّى كَانَ يُعَظَّمُ وَيُقَدَّسُ وَيُعْبَدُ كُلُّ حَجَرٍ يُرَى عَلَى شَكْلٍ جَمِيلٍ أَوْ غَرِيبٍ ، أَوِ اتَّخَذَ أَيَّ شَكْلٍ لِكائِنٍ ، أَوْ شِبْهَ صُورَةٍ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَمِنْ ثَمَّ عَمَدَ النَّاسُ عَلَى أَنْ يُسَوُّوا الأَحْجَارَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيُقِيمُوها أَصْناماً بِأَنْفُسِهِمْ ، عَلَى أَيِّ شَكْلٍ يُرِيدُونَ ؛ وَيُطْلِقُونَ عَلَيْهَا أَسْماءً مِمَّا يَسْتَحْسِنُونَ .

ثُمَّ يَعْبُدُونَهَا ، وَيُقَدِّمُونَ لَهَا الْقَرابِينَ تَوَدُّداً وَتَحَبُّباً ، وَيَنْذِرُونَ لَهَا النُّذُورَ ، لِتُبَارِكَهُمْ وَتَشْفَعَ لَهُمْ .

وَكَانَ أَوَّلُ صَنَمٍ دَخَلَ مَكَّةَ ، وَنُصِبَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ صَنَماً اسْمُهُ

هُبَلُ ، جَاءَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ ، كَانَ عَلَى سَفَرٍ ، فَمَرَّ بِبَعْضِ الْبِلادِ الَّتِي كَانَ أَهْلُها عَاكِفِينَ عَلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، فَرَآهُمْ يَعْبُدونَهَا ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ إِحْدَاهَا لِيُقِيمَهُ بِبَلَدِهِ ، فَأَعْطَوْهُ إِيَّاهُ .

وَتَعَدَّدَتِ الأَصْنامُ بِالْكَعْبَةِ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَكانَ مِنْهَا صَنَمَا إِسَافَ وَنائِلَةَ ، وَكَانَا عَلَى مَوْضِعِ بِئْرِ زَمْزَمَ ، الَّتِي كَانَتْ قَدْ رُدِمَتْ وَجَفَّ مَاءُهَا .

كَمَا كَانَ لِمُعْظَمِ قَبائِلِ الْعَرَبِ أَصْنَامٌ بِمُخْتَلِفِ الْجِهَاتِ وَالْبِلادِ ، مِنْهَا : الْعُزَّى ، وَكانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الطَّواغِيتِ عِنْدَ قُرَيْشٍ ، وَاللاَّتُ ، وَكانَتْ لِقَبِيلَةِ ثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ ، وَمَنَاةُ وَكَانَتْ لِقَبِيلَتَيِ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِالْمَدِينَةِ ، ثُمَّ غَيْرُها كَثِيرٌ .

وَهٰكَذا صَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ بَيْتَ اللهِ – الَّذِي بَنَاهُ إِبْراهِيمُ وَإِسْماعِيلُ – مَوْئِلاً لِلأَصْنامِ ، وَخَلَقُوا مِنْ سَاحَتِهِ مَسْرَحاً لِلأَوْثَانِ ! وَهُمْ بِذٰلِكَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُرْضُونَ اللهَ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ .

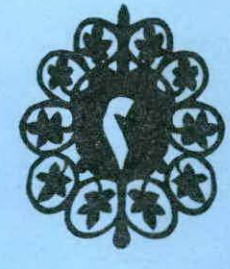

وَمَرَّتْ عَلَى مَكَّةَ الأَجْيَالُ ، وَتَوَالَتْ عَلَى رِيَاسَتِهَا الأَقْوَامُ ، حَتَّى تَوَلَّى أَمْرَهَا قُصَىُّ بْنُ كِلابٍ مِنْ سُلالَةِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ؛ وَعَاوَنَهُ عَلَى ذَلِكَ أَقْرِبَاؤُهُ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَكَانَتْ مَكَّةُ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ لاَ تزالُ مَنازِلُها خِيَاماً ، لاَ يَجْرُؤُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِها عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ لَهُ إِلَى جِوَارِ بَيْتِ اللهِ ، وَلا أَنْ يُقِيمَ لِنَفْسِهِ دَاراً تَعْلُو مَزَارَ اللهِ .

فَابْتَدَأَ قُصَىٌّ ، فَبَنَى دَاراً لِلنَّدْوَةِ ، يَجْتَمِعُ فِيها بِكُبَرَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَيَتَشَاوَرُونَ فِى شُئُونِ بَلَدِهِمْ ، وَيَتَدَاوَلونَ فى أُمُورِهَا ، وَفِيها تُقْضَى الأَحْكَامُ ،

وَتَتِمُّ خطْبَاتُ الزَّوَاجِ .

ثُمَّ أَمَرَ قُصَى قُرَيْشاً بِالْبِنَاء ، فَبَنَوْا مَنَازِلَهُمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، تَارِكِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا مَكاناً كَافِياً لِطَوَافِ النَّاسِ ، وَالْحاجِّينَ حَوْلَهَا .

وَكَانَ لِلْكَعْبَةِ عِدَّةُ مَنَاصِبَ ، نَشَأَتْ تَدْرِيجِيًّا حَسَبَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا . كَانَ مَنْ يَتَوَلَّى إِحْدَاهَا أَوْ بَعْضَهَا يَعُدُّ هَذَا لِنَفْسِهِ شَرَفاً أَىَّ شَرَفٍ ، فَنَالَ قُصَى شَرَفَ تَوَلِّيهَا كُلِّهَا .

وَكَانَ مِنْ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ مَنْصِبُ السِّقَايَةِ ، وَصَاحِبُهُ يَتَوَلَّى سَقْىَ الْحَجِيجِ الْمَاءَ الْعَذْبَ الَّذِى كَانَ شَحِيحاً بِمَكَّةَ ، يُجْلَبُ إِلَيْهَا مِنْ آبَارٍ بَعِيدَةٍ بَعْدَ أَنْ رُدِمَتْ بِئْرُ زَمْزَمَ ؛ وَكَذَلِكَ يَسْقِيهِمْ نَبِيذَ التَّمْرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا كَانُوا مُعْتَادِينَ أَنْ يَشْرَبُوا .

وَكَانَ مِنْهَا مَنْصِبُ الْحِجَابَةِ ؛ وَصَاحِبُهُ يَتَوَلَّى مَفَاتِيحَ الْبَيْتِ وَمُلاحَظَتَهُ ، وَعَدَمَ السَّمَاحِ لأَحَدٍ بِدُخُولِهِ إِلاَّ بِإِذْنٍ .

وَمَنْصِبُ الرِّفَادَةِ ، وَصَاحِبُهُ يَتَوَلَّى إِطْعَامَ الْحَاجِّ فِى كُلِّ مَوْسِمٍ مِنْ فُرُوضٍ

تَدْفَعُها قُرَيْشُ لِهَذا الغَرَضِ ، وَكَانَ قُصَىٌّ أَوَّلَ مَنْ فَرَضَها .

وَكَانَتْ هُناكَ أَيْضاً عِدَّةُ مَنَاصِبَ أُخْرَى غَيْرَ مَنَاصِبِ ٱلْكَعْبَةِ هَذِهِ ؛ جَمَعَها قُصَىٌّ جَمِيعَها فى يَدِهِ .

فَلَمَّا أَسَنَّ ، وَعَجَزَ عَنْ تَحَمُّلِ أَعْباءِ هَذِهِ ٱلْمَهَامِّ كُلِّها ، وَكَلَ مَنَاصِبَ ٱلْكَعْبَةِ إِلَى أَكْبَرِ أَوْلادِهِ عَبْدِ ٱلدَّارِ .

ثُمَّ انْتَقَلَتْ هَذِهِ ٱلْمَنَاصِبُ مِنْ عَبْدِ ٱلدَّارِ إِلى أَوْلادِهِ .

ولَكِنَّ أَوْلادَ عَبْدِ مَنافٍ وَهُوَ الابْنُ الثَّانِى لِقُصَىٍّ ؛ كَانُوا فى قَوْمِهِمْ ذَوِى شَرَفٍ ، وَذَوِى مَكَانَةٍ تَفُوقُ شَرَفَ أَولادِ عَمِّهِمْ عَبْدِ ٱلدَّارِ وَمَكَانَتِهِمْ . فَأَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَا بِيَدِ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِمْ مِن ٱلْمَنَاصِبِ .

وَبَعْدَ خِصَامٍ شَدِيدٍ ، وَمُنَازَعَاتٍ طَوِيلَةٍ – ٱتَّفَقَ الطَّرَفَانِ ، وَتَحالَفَا عَلَى أَنْ يَقْتَسِما مَنَاصِبَ ٱلْكَعْبَةِ فِيمَا بَيْنَهُمَا .

فَكَانَ مِنْ نَصِيبِ بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ .

وَكَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنافٍ كَبِيرَ إِخْوَتِهِ ، وَكَبِيرَ قَوْمِهِ ؛ وَكَانَ ذَا مَالٍ

وَيَسارٍ ، فَوَلِيَ هَذَيْنِ ٱلْمَنْصِبَيْنِ .

وَكَانَ هَاشِمٌ رَجُلاً ذا فَضْلٍ وَبِرٍّ وَرَحْمَةٍ ، فَدَعَا قُرَيْشاً إِلَى مَا دَعا إِلَيْهِ جَدُّهُ مِنْ إِطْعامِ الْحُجَّاجِ ، وَوَسِعَ بِرُّهُ أَهْلَ مَكَّةَ ٱلْفُقَرَاءَ ، وَنَظَّمَ لأَهْلِهَا رِحْلَتَيْنِ لِلتِّجَارَةِ ، يَخْرُجُ التُّجَّارُ فِيهِما جَمَاعَةً لِلاِتِّجَارِ بِأَمْوالِهِمْ ؛ إِحْدَاهُما تَخْرُجُ شِتَاءً فَتَقْصِدُ ٱلْيَمَنَ ، وَالثَّانِيَةُ تَخْرُجُ صَيْفاً فَتَقْصِدُ الشَّامَ .

كَما عَقَدَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْبِلادِ مُعاهَدَاتٍ وَأَحْلافاً سِيَاسِيَّةً وَتِجَارِيَّةً عَادَتْ عَلَى قُرَيْشٍ بِٱلطُّمَأْنِينَةِ وَالْخَيْرِ ٱلْكَثِيرِ .

خَرَجَ هَاشِمٌ فى إِحْدَى السِّنِين فِى تِجَارَةٍ لَهُ إِلَى الشَّامِ ، فَمَرَّ فى عَوْدَتِهِ بِيَثْرِبَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ . وَكَانَ يَصْحَبُهُمْ مِنْ أَهْل يَثْرِبَ تُجَّارٌ يَحْمِلُونَ تِجَارَةً لاِمْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِها .

وأَشْرَفَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى تُجَّارِهَا ، تَسْأَلُهُمْ عَنْ حَالَةِ تِجَارَتِها ، وَتَسْتَفْهِمُ عَمَّا بَاعُوا ، وَعَمَّا اشْتَرَوْا ؛ وَكَانَتْ تُنَاقِشُ الَّذِينَ يَتَّجِرُونَ لَهَا مُنَاقَشَةً عَاقِلَةً لَبِيبَةً حَازِمَةً فَطِنَةً ، وَكَانَ هَذَا عَلَى مَرْأَى مِنْ هَاشِمٍ فَأُعْجِبَ بِهَا ، وَسُرَّ مِنْ فِطْنَتِهَا وَذَكَائِهَا ، وَرَاقَهُ مَا يَبْدُو عَلَيْها مِنَ الْكَمَالِ وَالِاتِّزَانِ .

فَسَأَلَ رِفْقَتَهُ مِنْ قَوْمِهَا : مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ !

قَالُوا : هِيَ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرٍو مِنْ بَنِى النَّجَّارِ ، وَهُمْ مِنَ الْخَزْرَجِ .

قالَ : أَهِيَ ذَاتُ بَعْلٍ ؟ !

قالُوا : لاَ ؛ وَهِيَ ذَاتُ شَرَفٍ فى قَوْمِهَا ، وَلا تَرْضَى زَوْجاً إلاَّ مَنْ يَتْرُكُ لَها أَمْرَها بِيَدِهَا .

قالَ : اِسْأَلُوهَا ، هَلْ تَرْضانِى زَوْجاً ؟

فَلَمَّا سَأَلُوهَا قَبِلَتْ ؛ لأَنَّها تَعْلَمُ مَا لِهَاشِمٍ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ، وَالْمَكَانَةِ الْعالِيَةِ فى قَوْمِهِ .

فَتَزَوَّجَها هَاشِمٌ ، وَصَحِبَها مَعَهُ إِلَى مَكَّةَ ، حَيْثُ أَقامَتْ مَعَهُ زَمَناً ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى يَثْرِبَ ، فَوَلَدَتْ لَهُ بِهَا وَلَداً سَمَّتْهُ شَيْبَةَ .

وَمَرَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْوامٌ .

ثُمَّ خَرَجَ هَاشِمٌ لِلتِّجارَةِ فِى رِحْلَةِ الصَّيْفِ فَماتَ بِغَزَّةَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَخَلَفَهُ فِى مَناصِبِهِ أَخُوهُ الْمُطَّلِبُ .

وَفكَّرَ الْمُطَّلِب فى ابْنِ أَخِيهِ هاشِمٍ الَّذِى يُقِيمُ مَعَ أُمِّهِ بِبَلَدِها يَثْرِبَ ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُحْضِرَهُ إِلَى مَكَّةَ لِيُقِيمَ فى قَوْمِ أَبِيهِ ، وَيَنْشأَ بَيْنَ عَشِيرَتِهِمْ .

وَتَوَجَّهَ الْمُطَّلِبُ إِلَى يَثْرِبَ يَنْشُدُ هَذا الْغَرَضَ .

فَلَمَّا قَابَلَ زَوْجَةَ أَخِيهِ سَلْمَى ، قَالَ لَهَا :

لَقَدْ كَبِرَ ابْنُ أَخِى ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ ، فَأَوَدُّ أَنْ أَصْحَبَهُ مَعِى إِلَى قَوْمِهِ ، فَإِنَّنَا كَمَا تَعْلَمِينَ أَهْلُ شَرَفٍ فى قَوْمِنا ، وَهُوَ هُنَا غَرِيبٌ فى غَيْرِ قَوْمِهِ .

فَقَالَتْ سَلْمَى : إِنَّنِى يَعِزُّ عَلَىَّ أَنْ أُفارِقَهُ ، وَلَكِنَّنِى لاَ أَوَدُّ أَنْ يَنْشأَ غَرِيباً فى قَوْمِهِ ؛ فَسَلْهُ فِيما يُحِبُّ .

فَلَمَّا سَأَلَ الْمُطَّلِبُ ابْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ فِيما جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ لَهُ الْفَتَى : إِنَّنى لاَ أُفارِقُ أُمِّى إِلاَّ أَنْ تَأْذَنَ لِى .

عِنْدَئِذٍ أَذِنَتْ سَلْمَى ، فَصَحِبَهُ الْمُطَّلِبُ مَعَهُ إِلَى مَكَّةَ .

وَدَخَلَ الْمُطَّلِبُ مَكَّةَ ، وَقَدْ أَرْدَفَ الفَتَى مَعَهُ عَلَى بَعِيرِهِ ، فَظَنَّتْهُ قُرَيْشٌ عَبْداً لَهُ جَاءَ بِهِ فى رِحْلَتِهِ فَتَصَايَحَ النَّاسُ :

لَقَدْ جَاءَ الْمُطَّلِبُ بِعَبْدٍ لَهُ ! هَلْ رَأَيْتُمْ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ؟ ! هَذَا هُوَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ !

وَتَسامَعَ الْمُطَّلِبُ بِصِياحِهِمْ ، فَقالَ لَهُمْ :

وَيْحَكُمْ يا أَهْلَ قُرَيْشٍ ! ! إِنَّما هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنْ يَثْرِبَ .

عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ الَّذِي ابْتَدَعَهُ النَّاسُ ، كانَ هُوَ الاِسْمَ الَّذِي غَلَبَ عَلَى اسْمِ الْفَتَى فَدُعِيَ بِهِ ، وَنَسِيَ النَّاسُ شَيْبَةَ الَّذِي دُعِيَ بِهِ مُنْذُ وُلِدَ ، وَسُمِّيَ مِن ذَلِكَ الْحِينِ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ !

وَمَاتَ الْمُطَّلِبُ ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ قَدْ كَبِرَ ، وَاشْتَدَّ سَاعِدُهُ ، فَتَوَلَّى عَمَلَ أَبِيهِ هَاشِمٍ ، وَهُوَ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ .

وَشَقَّ أَمْرُ السِّقَايَةِ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ ، حَيْثُ كَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لِلْحُجَّاجِ مِنْ آبارٍ مُبَعْثَرَةٍ ، كَانَتْ قَدْ حُفِرَتْ بِأَطْرافِ مَكَّةَ ، وَيُوضَعُ فى أَحْواضٍ بِجِوَارِ الْكَعْبَةِ تُلْزِمُهُ الإِشْرافَ عَلَى مُدَاوَمَةِ مَلْئِها ، وَمُباشَرَةِ نَظافَتِها .

فَفَكَّرَ فِيمَا يُقالُ عَنْ بِئْرِ زَمْزَمَ ، الَّتِى كَانَتْ تُعْطِى الْحاجَّ حَاجَتَهُ مِنْ مَائِها

ٱلْعَذْبِ ٱلزُّلَالِ دُونَ أَقَلِّ تَعَبٍ ، أَوْ أَدْنَى مَشَقَّةٍ .

وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ رَدْمِها ، وَعَمَّنْ رَدَمَها ، فَقِيلَ لَهُ :

رَدَمَها مُضَاضُ ٱلْجُرْهُمِيُّ آخِرُ مَنْ تَوَلَّى أَمْرَ مَكَّةَ مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُم ، حِينَ غَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ بَنُو خُزَاعَةَ ، حَيْثُ حارَبُوهُ وَقَوْمَهُ لِيُخْرِجُوهُمْ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ أَفْسَدَ فِيها قَوْمُهُ ، فَعَمَدَ إِلى هَدَايَا ٱلْكَعْبَةِ ، فَوَضَعَها فِى جَوْفِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ أَهَالَ عَلَيْها الرِّمَالَ .

فَقالَ عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ : إِنَّنِى لَنْ يَهْدَأَ لِى بَالٌ ، وَلَنْ يَسْتَقِرَّ لِى قَرارٌ ، حَتَّى أُعِيدَ لِزَمْزَمَ جالَتَهَا ٱلْأُولَى ، وفِى إِحْدَى ٱللَّيَالِى هُتِفَ بِهِ فى نَوْمِهِ : أَنِ ٱحْفُرْ زَمْزَمَ .

وَأَلَحَّ هٰذا ٱلْهاتِفُ بِهِ ، فَصَحَّ عَزْمُهُ عَلَى حَفْرِها .

وَتَمَّ لَهُ حَفْرُهَا بَعْدَ أَنْ لاقَى فى سَبِيلِ ذٰلِكَ مَا لاقَى ، وَتَحَمَّلَ مِنْ أَجْلِهِ مَا تَحَمَّلَ .

وَفِى جَوْفِها وَجَدَ هَدَايَا ٱلْكَعْبَةِ ٱلَّتِى دَفَنَهَا مُضَاضُ ٱلْجُرْهُمِيُّ وَأَسْيافَهُ ،

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ ٱلْهَدَايا غزَالتانِ مِنْ ذَهَبٍ .

فَصَنَعَ مِنَ الأَسْيافِ بَاباً لِلْكَعْبَةِ ، وَوَضَعَ ٱلْغَزَالَتَيْنِ عَلَى جَانِبَى ٱلْبَابِ حِلْيَةً لَها .

وَكانَ لِمَا لاَقَى عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ فى سَبِيلِ حَفْرِ زَمْزَمَ مِنَ التَّعَبِ وَٱلْمَشَقَّةِ – أَكْبَرُ الأَثَرِ فى نَفْسِهِ ، فَقَدْ شَعَرَ بِٱلْوَحْدَةِ ، وكانَ إِلَى ذَلِكَ ٱلْحِينِ لَيْسَ لَهُ مِنَ الأَوْلاَدِ إِلاَّ وَلَدٌ ٱسْمُهُ ٱلحَارِثُ ، فَنَذَرَ لِلّهِ بِقَوْلِهِ :

يَارَبِّ ، لَئِنْ رَزَقْتَنِى أَولاَداً عَشْرَةً ، وَبَلَغُوا أَشُدَّهُمْ مَعِى ، فَشَدُّوا أَزْرِى – لَأَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ لَكَ عِنْدَ ٱلْكَعْبَةِ !

وَرُزِقَ عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ مَا تَمَنَّى ، وَبَلَغَ أَوْلادُهُ عَشْرَةً ، فَسَاعَدُوهُ ، وعَضَدُوهُ ، وَشَدُّوا أَزْرَهُ .

وَآنَ أَوَانُ ٱلْوَفَاءِ بِٱلنَّذْرِ ! فَجَمَعَ عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ أَوْلاَدَهُ ، وَأَعْلَمَهُمْ بِنَذْرِهِ ؛ فَقَالُوا لَهُ : يا أَبَانَا ، إِنَّنا فى طاعَتِكَ ، فَتَخَيَّرْ مِنَّا مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِ ٱلْوَفَاءُ .

فَقالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ : فَلْيَكْتُبْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ ٱسْمَهُ عَلَى قَدَحٍ ،

وَيَأْتِينِى بِهِ .

فَلَمَّا أَتَوْهُ بِمَا طَلَبَ ، أَخَذَهَا وَذَهَبَ بِها إِلَى صاحِبِ الْقِدَاحِ فِى جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، لِيَسْتَفْتِيَ لهُ « هُبَلَ » كَبِيرَ الأَصْنامِ .

ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عادَةِ أَهْلِ مَكَّةَ كُلَّمَا اشْتَدَّ بِهِمْ أَمْرٌ أَنْ يَسْتَفْتُوا فى ذَلِكَ آلِهَتَهُمْ الأَصْنامَ ؛ بِأَنْ يَضْرِبَ صاحِبُ الْقِدَاحِ ، فَمَا خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْقِدَاحُ عُمِلَ بِهِ .

وَضَرَبَ صاحِبُ الْقِداحِ بِقِدَاحِ أَوْلادِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ هُبَلَ ، فَطَلَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى أَصْغَرِ أَوْلادِهِ عَبْدِ اللّهِ !

وَكَانَ عَبْدُ اللّهِ أَحَبَّ أَوْلادِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِ ، وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى قَلْبِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ إِزاءَ مَا أَشارَ السَّهْمُ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَنْحَرَهُ وَفاءً لِنَذْرِهِ !

وَأَخَذَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِيَدِ ابْنِهِ ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى الْمَنْحَرِ عِنْدَ زَمْزَمَ ، حَيْثُ كانَ يَنْحَرُ الْعَرَبُ عِنْدَ صَنَمَىْ إِسَافَ وَنائِلَةَ !

وَانْتَشَرَ هَذا النَّبَأُ بِأَنْحَاءِ مَكَّةَ ، وَسَرَى كَالْبَرْقِ فى أَنْدِيَتِها ، فَهَبَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهَا ، تُهِيبُ بِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ : لاَ تَذْبَحِ ابْنَكَ !

وَتَسَاءَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : وَمَاذا أَفْعَلُ ، وَقَدْ نَذَرْتُ ذٰلِكَ ، فَوَجَبَ عَلَيَّ الْوَفَاءُ ؟ !

قالُوا : إِنْ كَانَ فِدَاؤُهُ بِأَمْوَالِنا فَدَيْنَاهُ ، وَإِنْ كانَتْ دِيَتُهُ بِأَنْعامِنَا نَحَرْنَاهَا فى سَبِيلِهِ ! وتَشاوَرَ الْقَوْمُ فِيما يُقَرِّرُونَ ، وَفِيما يَفْعَلُونَ ، فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَسْتَفْتُوا فى هَذا الأَمْرُ عَرَّافَةً بِناحِيَةِ يَثْرِبَ ، لَها رَأْيٌ فى مِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ .

وَسَأَلَتْهُمُ الْعَرَّافَةُ : كَمِ الدِّيَةُ فِيكُمْ ، إِذا أَرَدْتُمْ أَنْ تَفْتَدُوا مُذْنِباً ، أَوْ تُفْرِجُوا عَنْ أَسِيرٍ ؟

قَالُوا : عَشْرٌ مِنَ الإِبِلِ .

قالَتْ : تَقَرَّبُوا بِهَا ، فَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ فَزِيدُوها عَشْراً بَعْدَ عَشْرٍ ، حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ .

وَضَرَبُوا بِالْقِدَاحَ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ وَالإِبِلِ ، فَخَرَجَتْ عَلَى عَبْدِ اللهِ ، فَزَادُوا الإِبِلَ عَشْراً أُخْرَى ، وَضَرَبُوا ، فَخَرَجَتْ كَذَلِكَ عَلَى عَبْدِ اللهِ ؛ فَمَازَالُوا يَزِيدُونَ فى الإِبِلِ وَتَخْرُجُ عَلَى عَبْدِ اللهِ ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ قَائِمٌ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَقْبَلَ

فِدَاءَهُ ، وَيَسْمَعَ شَفَاعَتَهُ حَتَّى بَلَغَتِ الإِبِلُ مِائَةً ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهَا . فَفَرِحَ الْقَوْمُ ، وَهَلَّلُوا ، وَقَالُوا لِعَبْدِ الْمُطَلِبِ : لَقَدْ تَقَبَّلَ اللهُ فِدَاءَ ابْنِكَ يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ .

وَلَكِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَصَرَّ عَلَى أَنْ يُعَادَ ضَرْبُ الْقِداحِ ثَلاثاً ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْ رِضاءِ اللهِ عَلَيْهِ . فَضُرِبَتْ ثَلاثاً ، فَخَرَجَتْ عَلَى الإِبِلِ ، فَنُحِرَتْ ، وَتُرِكَتْ لاَ يُصَدُّ عَنْهَا إِنْسانٌ وَلا يُمْنَعُ .

كَانَ عَبْدُ اللهِ فَتًى جَمِيلاً وَسِيماً ، يُشْرِقُ النُّورُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَيَشِعُّ الْبَهاءُ مِنْ طَلْعَتِهِ . لِذَا كانَتْ نِساءُ قُرَيْشٍ . يُعْجَبْنَ بِهِ ، وَكَانَتْ فَتَياتُها يَتَمَنَّيْنَ الزَّوَاجَ مِنْهُ .

وَزَادَ النِّساءَ إِعْجاباً بِهِ ، وَالْفَتَيَاتِ رَغْبَةً فِيهِ ، مَا كانَ مِنْ حَدِيثِ الْفِدَاءِ ، وَمَا حَدَثَ فِيهِ .

وَكَانَ مِنْ هَذا أَنْ تَعَرَّضَتِ النِّسَاءُ لِعَبْدِ اللهِ ، يَخْطُبْنَ وُدَّه ، وَيَطْلُبْنَ الزَّوَاجَ مِنْهُ !

وَلٰكِنَّ الْقَدَرَ كانَ قَدْ تَخَيَّرَ عَرُوسَ عَبْدِ اللهِ !

وَكانَ اللهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُ أُمَّ وَلَدِهِ !

فَكانَتْ عَرُوسُهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ ، أَفْضَلَ فَتَاةٍ فى قُرَيْشٍ نَسَباً ، وَابْنَةَ سَيِّدِ بَنِى زُهْرَةَ سِنًّا وَشَرَفاً .

خَطَبَها لَهُ أَبُوهُ وَزَفُّوهَا إِلَيْهِ ، فَاشْتَمَلَتْ مِنْهُ بِجَنِينٍ !

وَلٰكِنَّ عَيْنَ الْقَدَرِ الَّتِى رَعَتْ عَبْدَ اللهِ ؛ فَأَنْجَتْهُ مِنَ النَّحْرِ وَأَنْقَذَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ مُنْذُ قَلِيلٍ ، لَمْ تُمْهِلْهُ طَوِيلاً !

خَرَجَ عَبْدُ اللهِ مَعَ رِحْلَةِ الشَّامِ لِلتِّجارَةِ ، وفى عَوْدَتِهِ مَرَّ عَلَى أَخْوالِ أَبِيهِ بالمَدِينَةِ ، لِيَسْتَرِيحَ عِنْدَهُمْ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ ، فَمَرِضَ فَتَرَكَهُ رُفْقَتُهُ عِنْدَ أَخْوالِ أَبِيهِ ، وَعادُوا إِلَى مَكَّةَ ، فَأَنْبَأُوا أَبَاهُ نَبَأَ مَرَضِهِ !

فَأَوْفَدَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَكْبَرَ أَبْنائِهِ الْحارِثَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ لِيَعُودَ أَخاهُ ، وَيَصْحَبَهُ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ إِبْلالِهِ .

لٰكِنْ ، وا أَسَفَاهُ . . ! لَمْ يَرَ الْحارِثُ أَخاهُ عَبْدَ اللهِ ، وَلَمْ يُقَدَّرْ لَهُ أَنْ

يَصْحَبَهُ إِلَى مَكَّةَ ؛ لِيَرَاهُ أَبُوهُ وَعَرُوسُهُ وَقَوْمُهُ !

كَانَ عَبْدُ اللهِ قَدْ مَاتَ وَدُفِنَ مُنْذُ أَيَّامٍ بَعِيداً عَنْ أَبِيهِ ، بَعِيداً عَنْ عَرُوسِهِ ، بَعِيداً عَنْ قَوْمِهِ : وَعَادَ الحَارِثُ يَنْعَى أَخَاهُ !

عَادَ يَنْعَى الشَّابَّ الَّذِى فُدِىَ مِنَ الْمَوْتِ ، فاخْتَطَفَهُ الْمَوْتُ ، وَيَنْعَى الزَّوْجَ الشَّابَّ الَّذِى لَمْ يَسْعَدْ مَعَ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ ، وَلَمْ تَسْعَدْ هِىَ بِهِ .

وَتَلَقَّى الأَبُ نَعْىَ الابْنِ الَّذِى ما كَادَ قَلْبُهُ يَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ ، حَتَّى انْفَطَرَ هَمًّا وَحُزْناً .

وَتَلَقَّتْ آمِنَةُ نَعْىَ رَجُلِهَا ، الَّذِى كَانَتْ تَرْجُو فى حَيَاتِهِ هَنَاءَةً وَسَعَادَةً .

وَتَلَقَّتْ قُرَيْشٌ النَّعْىَ بِأَسَفٍ وَحَسْرَةٍ وَوُجُومٍ .

أَتَمَّتْ آمِنَةُ شُهُورَ حَمْلِهَا ؛ وفى يَوْمِ اثْنَيْنِ بَعْدَ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ وَضَعَتْ آمِنَةُ حَمْلَهَا .

وَكانَ الْمَوْلُودُ غُلاَماً وَضِيئاً مُشْرِقاً !

وَأَرْسَلَتْ آمِنَةُ إِلَى حَمِيهَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَدْعُوهُ لِرُؤْيَةِ حَفِيدِهِ .

فَجاءَ إِلَيْها ، وَقَدْ سَرَّهُ أَنْ جاءَهُ وَلَدٌ ، هُوَ ابْنٌ لِعَبْدِ اللهِ .

وَحَمَلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الْمَوْلُودَ فَرِحاً ، وَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَطافَ بِهِ حَوْلَهَا ؛ ثُمَّ سَمَّاهُ مُحَمَّداً .

وَفى هَذِهِ اللَّيْلَةِ شُوهِدَ يَهُودِىٌّ يَقِفُ عَلَى عِلِّيَّةٍ بِيَثْرِبَ ، وَهُوَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُنادِياً : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ! يا مَعْشَرَ يَهُودَ ! فَلَمَّا ٱجْتَمَعَ عَلَى نِدَائِهِ قَوْمُهُ ، قالَ : طَلَعَ اللَّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَد ٱلَّذِى وُلِدَ بِهِ .

وَفِى اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ لِمَوْلِدِ مُحَمَّدٍ ، أَمَرَ عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ بالجَزُورِ فَنُحِرَتْ ودَعا إِلَيْها رِجَالَ قُرَيْشٍ فَطَعِمُوا ، وَسَأَلَ بَعْضُهُمْ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ : لِمَ رَغِبْتَ يا عَبْدَ الْمُطَّلِب عَنْ أَسْماءِ آبَائِكَ ، وَسَمَّيْتَ حَفِيدَكَ مُحَمَّدًا ؟

قال : أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ مَحْمُودًا فى السَّمَاءِ لِلّهِ ، وفى الأَرْضِ لِخَلْقِهِ .

وَدَفَعَتْ آمِنَةُ بِوَلِيدِهَا إِلَى ثُوَيْبَةَ جَارِيَةِ عَمِّهِ أَبى لَهَبٍ لِتُرْضِعَهُ حَتَّى تَأْتِىَ مَرَاضِعُ بَنِى سَعْدٍ مِنَ ٱلْبَادِيَةِ ، فَتَدْفَعَ بِهِ إِلَيْهِنَّ ، كَعَادَةِ نِسَاءِ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ . وَلَمْ تُرْضِعْ ثُوَيْبَةُ مُحَمَّدًا مِنْ لَبَنِهَا إِلاَّ أَيَّامًا ، ثُمَّ حَضَرَتْ مَرَاضِعُ بَنِى سَعْدٍ .

وَأَقْبَلَتِ ٱلْمَرَاضِعُ يَلْتَمِسْنَ الأَطْفَال لإِرْضَاعِهِنَّ ، وَيَعْرِضْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَلَى ٱلْأُمَّهَاتِ ، لِيَنْتَخِبْنَ مِنْهُنَّ مَرَاضِعَ لِأَطْفَالِهِنَّ ، وَيَتَخَيَّرْنَ أَنْسَبَهُنَّ .

وَتَخَيَّرَتِ ٱلأُمَّهَاتُ لأَطْفَالِهِنَّ ٱلْمَرَاضِعَ ، وَٱحْتَضَنَتْ كُلُّ مِنْهُنَّ طِفْلاً ،

إلاَّ مُرْضِعَةً وَاحِدَةً مِنْهُنَّ صَدَّتْ عَنْهَا الأُمَّهَاتُ لِمَا يَبْدُو بِهَا مِنْ ضَعْفٍ وَهُزَالٍ ، وَلِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهَا مِنْ فَقْرٍ وَمَسْغَبَةٍ ، وَكَانَتْ هِيَ حَلِيمَةَ بِنْتَ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةَ .

وَبَقِيَ طِفْلٌ وَاحِدٌ صَدَّتْ عَنْهُ ٱلْمَرَاضِعُ ، وَلَمْ تَقْبَلْ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَحْتَضِنَهُ ؛ وَكَانَ الطِّفْلُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ .

عَلِمَتِ ٱلْمَرَاضِعُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَتِيمٌ لاَ أَبَ لَهُ ؛ فَصَدَدْنَ عَنْهُ ، وَٱمْتَنَعْنَ عَنْ حَضَانَتِه ، وَرَغِبْنَ عَنْ إِرْضَاعِهِ ، وَقُلْنَ : مَالَنا وَلِهٰذَا ٱلْيَتِيمِ ! مَا ٱلَّذِي يُعْطِينَا جَدُّهُ ؟ ! وَمَا ٱلَّذِي نَبْغِي مِنْ وَرَاءِ أُمِّهِ ؟ !

وَاسْتَعَدَّتِ الْمَرَاضِعُ لِلأَوْبَةِ إِلَى دِيَارِهِنَّ ، وَتَهَيَّأْنَ لِلْعَوْدَةِ بِرُضَعَائِهِنَّ الَّذِينَ رَجَوْنَ مِنْ وَرَائِهِمْ خَيْراً وَبِرًّا .

عِنْدَئِذٍ قَالَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ لِزَوْجِهَا الَّذِي كَانَ يُرَافِقُهَا :

وَاللهِ إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَيْسَ مَعِي رَضِيعٌ مِثْلَهُنَّ ؛ لأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ ٱلْيَتِيمِ فَآخُذَهُ .

فَقَال لَهَا زَوْجُهَا : لاَ عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِى ، عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنا فِيهِ بَرَكَةً ! ! وَذَهَبَتْ حَلِيمَةُ ، فَأَخَذَتْ مِنْ آمِنَةَ وَلِيدَهَا مُحَمَّدًا ، وَحَمَلَتْهُ إِلَى رَحْلِهَا ، مُفَضِّلَةً أَنْ تَأْخُذَ هَذَا الْيَتِيمَ عَلَى أَنْ تَعُودَ فَارِغَةً . وَفَرِحَتْ آمِنَةُ حَتَّى لاَ يُؤْلِمَهَا صُدُودُ الْمَرَاضِعِ عَنْ وَلِيدِهَا ، وَحَتَّى لاَيَحْزُنَهَا بَقاؤُهُ أَمامَ أَتْرابِهَا مِنْ نِسَاءِ قُرَيْش .

وَضَمَّتْ حَلِيمَةُ مُحَمَّدًا إِلَى صَدْرِهَا ، وَأَلْقَمَتْهُ ثَدْيَهَا الضَّامِرَ .

وَلَكِنْ ، كَمْ كَانَتْ دَهْشَةُ حَلِيمَةَ ! ! وَكَمْ كانَ عَجَبُها ! !

لَقَدْ أَحَسَّتْ بِاللَّبَنِ يَجْرِى فِى ثَدْيِهَا فَيَمْلَؤُهُ ! وَشَعَرَتْ بِهِ يَتَدَفَّقُ إِلَى فَمِ رَضِيعِهَا فَيَكَادُ أَنْ يَشْرَقَ لِكَثْرَتِهِ !

وَارْتَوَى مُحَمَّدٌ مِنْ لَبَنِ حَلِيمَةَ ، ثُمَّ ارْتَوَى مِنْ بَعْدِهِ طِفْلُهَا الَّذِى كانَ قَلَّمَا يَجِدُ فِى ثَدْيِ أُمِّهِ مَا يُرْوِيهِ ، أَوْ يُشْبِعُهُ !

وَقَامَ زَوْجُ حَلِيمَةَ إِلَى نَاقَتِهَا الْمُسِنَّةِ الْعَجْفَاءِ ، لِيُحاوِلَ أَنْ يُدِرَّ مِنْ لَبَنِها مَا يَقُوتُهُ وَيَقُوتُ زَوْجَتَهُ ، فَإِذا بِضَرْعِهَا الْهَزِيلِ يَحْفِلُ بِاللَّبَنِ . فَحَلَبَ مِنْهَا

وَشَرِبَ ، وَشَرِبَتْ مَعَهُ امْرَأَتُهُ ، حَتَّى امْتَلآ شِبَعاً وَرِيًّا .

وَبَاتَا لَيْلَتَهُمَا إِلَى جَانِبِ الطِّفْلَيْنِ ، مُسْتَغْرِقَيْنِ جَمِيعاً فى نَوْمٍ هَانِئٍ هَادِئٍ عَمِيقٍ .

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَالَ الرَّجُلُ لِزَوْجَتِهِ : أَتَعْلَمِينَ يَا حَلِيمَةُ ؟ ! لَقَدْ أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً وَاللهِ !

فَأَجَابَتْهُ حَلِيمَةُ : واللهِ إِنِّى لأَرْجُو ذَلِكَ .

وَسَارَ رَكْبُ الْمَرَاضِعِ عائِدًا بِهِنَّ إِلَى دِيَارِهِنَّ ، وَأَتَانُ حَلِيمَةَ سَبَقَتْ حُمُرَ الرَّكْبِ بِهَا ؛ فَنَادَتْ عَلَى حَلِيمَةَ صُوَيْحِبَاتُهَا ، وَقُلْنَ لَهَا :

وَيْحَكِ يَا بِنْتَ أَبِى ذُؤَيْبٍ ! ! تَرَيَّثِى عَلَيْنَا ، وَتَمَهَّلِى بِنَا ؛ أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكِ الَّتِى خَرَجْتِ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ تَعُوقُنَا فِى السَّيْرِ ، وَتَرُدُّكِ إِلَى الْمُؤَخَّرَةِ ؟ !

قَالَتْ حَلِيمَةُ : إِنَّهَا لَهِىَ وَاللهِ !

قُلْنَ : وَاللهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْناً .

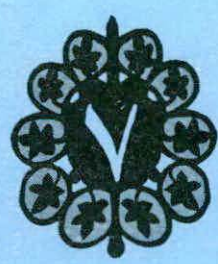

وَحَلَّتِ الْبَرَكَةُ عَلَى حَلِيمَةَ ، وَعَمَّ الْخَيْرُ كُلَّ مَا اتَّصَلَ بِها .
شَحِمَتْ أَغْنامُهَا ، وَأُتْرِعَ ضَرْعُهَا لَبَناً ، وَزَادَ اللّهُ لَهَا فِى كُلِّ ما عِنْدَهَا .
وَمَضَتْ سَنَتَا الرَّضَاعِ عَلَى مُحَمَّد : تُرْضِعُهُ حَلِيمَةُ ، وَتَحْضُنُهُ ابْنَتُهَا الشَّيْماءُ ؛ وَجَوُّ الصَّحْراءِ النَّقِيُّ ، وَخُشُونَةُ عَيْشِ الْبَادِيةِ ؛ يُسْرِعُ بِهِ إِلَى النُّمُوِّ ، وَيَزِيدُ فى قُوَّتِهِ وَحُسْنِ تَكْوِينِهِ .
وَآنَ أَوَانُ الْعَوْدَةِ بِمُحَمَّدٍ إِلى أُمِّهِ ، وَالرُّجُوعِ إِلىَ قَوْمِهِ .
فَعَادَتْ بِهِ حَلِيمَةُ ، وَهِىَ تَتَمَنَّى أَلاَّ تَعُودَ ، فَقَدْ كَانَتْ تَوَدُّ أَلاَّ يُفَارِقَهَا ،

وَتَتَمَنَّى أَنْ تَطُولَ مُدَّةُ حَضانَتِهَا إِيَّاهُ .

فَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تَطْلُبَ إِلَى أُمِّهِ أَنْ تَتْرُكَهُ فِى حَضانَتِهَا فَتْرَةً أُخْرَى .

وَأَتَتْ حَلِيمَةُ آمِنَةَ ، فَقالَتْ لَهَا :

أَلا تَرَكْتِ مُحَمَّدًا عِنْدِى حَتَّى يَكْبَرَ ، فَإِنِّى أَخْشَى عَلَيْهِ هَوَاءَ مَكَّةَ ؟ !

وَمازَالَتْ حَلِيمَةُ بِآمِنَةَ : تَرْجُوهَا وَتَسْتَعْطِفُها فِى أَنْ تَتْرُكَ لَهَا مُحَمَّدًا فَتْرَةً أُخْرَى مِنَ الْوَقْتِ ، وَتُذَكِّرُهَا بِما كانَ يُلَوِّثُ جَوَّ مَكَةَ حِينَذَاكَ مِنْ وَبَاءٍ وَمَرَضٍ يُخْشَى مِنْهُ عَلَى مُحَمَّدٍ – حَتَّى قَبِلَتْ آمِنَةُ أَنْ تَتْرُكَهُ لَهَا .

وَعَادَتْ حَلِيمَةُ بِمُحَمَّدٍ فِى خِفَّةٍ مِنَ الْفَرَحِ ، وَنَشْوَةٍ مِنَ السُّرُورِ !

وَعَادَ مُحَمَّدٌ بَيْنَ أَحْضانِ الصَّحْراءِ إِلَى سِيرَتِهِ الأُولَى : يَلْعَبُ فَوْقَ رِمالِها ، وَيَرْتَعُ عَلَى حَصْبائِها ، وَيَلْهُو مَعَ أَتْرابِهِ فى جَوٍّ نَقِيٍّ خالِصٍ .

وَأَتَمَّ مُحَمَّدٌ مِنْ عُمْرِهِ سَنَواتٍ خَمْساً .

وَآنَ أَوانَ الْفِراقِ ثانِياً بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَلِيمَةَ !

كانَتْ حَلِيمَةُ لاَ تَزَالُ ضَنِينَةً بِهِ ، حَرِيصَةً عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ : كانَ لاَبُدَّ

لِمُحَمَّدٍ أَنْ يَعُودَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيُرَبَّى بَيْنَ قَوْمِهِ .

وَكانَ هُنَاكَ أَيْضاً مَا بَعَثَ حَلِيمَةَ عَلَى الإِسْراعِ إِلَى ذَلِكَ .

أَمَّا الْبَاعِثُ ، فَهُوَ أَنَّهُ حِينَمَا كَانَتْ يَوْماً مَعَ مُحَمَّدٍ – مَرَّ عَلَيْهِمَا نَفَرٌ مِنْ نَصَارَى الْحَبَشَةِ ، وَمَا إِنْ وَقَعَ نَظَرُهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ ؛ حَتَّى أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَتَفَحَّصُونَهُ ، وَيُمْعِنُونَ النَّظَرَ فِيهِ ، وَيَسْأَلُونَ حَلِيمَةَ : مَنْ يَكُونُ هٰذا الْغُلامُ ؟ !

ثُمَّ تَدَاوَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِشَأْنِهِ ، وقَالُوا :

لَنَأْخُذَنَّ هَذَا الْغُلامَ ، وَلَنَذْهَبَنَّ بِهِ إِلَى مَلِكِنَا وَبَلَدِنا ، فَإِنَّ هٰذا الْغُلامَ كَائِنٌ لَهُ شَأْنٌ نَحْنُ نَعْرِفُ أَمْرَهُ ! !

فَما فَطِنَتْ حَلِيمَةُ إِلَى غَرَضِهِمْ ، وَأَلَمَّتْ بِمَا يُبَيِّتُونَ لِمُحَمَّدٍ ، وَبِمَا يَعْتَزِمُونَ فِي شَأْنِهِ – حَتَّى فَزِعَتْ خَوْفاً عَلَى مُحَمَّدٍ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنْهَا ، أَوْ يَخْتَطِفُوهُ ، أَوْ يَنَالُوهُ بِمَكْرُوهٍ ، فَتَحَايَلَتْ حَتَّى اخْتَفَتْ بِهِ مِنْ أَمامِهِمْ ، وَأَفْلَتَتْ بِهِ مِنْ قَبْضَتِهِمْ ؛ وَهِيَ مَا تَكادُ تُصَدِّقُ بِإِفْلاتِهِ وَنَجَاتِهِ .

وَأَسْرَعَتْ حَلِيمَةُ إِلَى آمِنَةَ حَيْثُ رَدَّتْ إِلَيْهَا أَمانَتَها ، وَأَرْجَعَتْ لَهَا وَدِيعَتَها الْغَالِيَةِ .

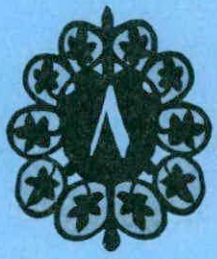

وَظَلَّ مُحَمَّدٌ فِى كَنَفِ أُمِّهِ ، وَرِعايَةِ جَدِّهِ : يَلْحَظانِهِ ، وَيَرْعيانِهِ ، وَيَحْدَبانِ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى ارْتَأَتْ أُمُّهُ أَنْ تَخْرُجَ بِهِ إِلَى يَثْرِبَ فِى زِيارَةٍ لأَخْوالِ جَدِّهِ مِنْ بَنِى النَّجَّار ، فَحَمَلَتْهُ مَعَهَا ، وَخَرَجَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ ، مُسْتَصْحِبَةً مَعَهَا أُمَّ أَيْمَنَ جَارِيَةَ زَوْجِهَا الْحَبَشِيَّةَ الَّتِى خَلَّفَهَا لَهَا مِنْ بَعْدِهِ .

وَهُناكَ أَرَتْ آمِنَةُ وَلَدَها الْبَيْتَ الَّذِى مَاتَ أَبُوهُ فِيهِ ، وَالْمَكانَ الَّذِى دُفِنَ بِهِ .. فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا عَرَّفَ مُحَمَّدًا مَعْنَى الْيُتْمِ ، وَمَبْدَأَ مَا أَحَسَّ مِنْ تَأَثُّرٍ وَمَرَارَةٍ .

ثُمَّ كانَ أَنْ أَنْهَتْ آمِنَةُ زِيارَتَها ، وَكَرَّتْ بِمُحَمَّدٍ عائِدةً إِلَى مَكَّةَ .

وَفِى الطَّرِيقِ مَرِضَتْ آمِنَةُ ، كَمَا مَرِضَ زَوْجُها مِنْ قَبْلُ ، وَماتَتْ وَدُفِنَتْ بِالأَبْواءِ بَعِيدَةً عَنْ قَوْمِها ؛ كَمَا مَاتَ عَبْدُ اللهِ وَكَمَا دُفِنَ عَبْدُ اللهِ !

اللّهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ . . !

مَا كِدْتَ تَفْهَمُ مَعْنَى الْيُتْمِ فى أَبِيكَ ، حَتَّى عَرَفْتَهُ فِى أُمِّكَ . . !

وَمَا كِدْتَ تَعْرِفُ طَرِيقَ قَبْرِ أَبِيكَ حَتَّى رَأَيْتَ قَبْرَ أُمِّكَ .

شَعَرَ بِالْيُتْمِ وَهُوَ إِلَى جانِبِ أُمِّهِ ، فَكَيْفَ بِهِ وَحِيدًا فَرِيدًا . . ؟ ! وَأَحَسَّ الأَلَمَ يَزِيدُ بِهِ ، وَيَتَضاعَفُ عَلَيْهِ .

وَعادَ مُحَمَّدٌ إِلَى قَوْمِهِ باكِياً مُنْتَحِباً ، تَحْتَضِنُهُ أُمُّ أَيْمَنَ ، حانِيَةً عَلَيْهِ .

وَزادَ ذَلِكَ الْحادِثُ فى إِعْزازِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِمُحَمَّدٍ ، وَفِى زِيادَةِ رِعايَتِهِ لَهُ ، وَحَدَبِهِ عَلَيْهِ .

مَنَحَهُ أَكْثَرَ قَلْبِهِ ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيلِ حُبِّهِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ كَثِيراً مِنْ عَطْفِهِ ، وَعَظِيمِ عِنايَتِهِ ، حَتَّى لَقَدْ كانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَعَلَى أَوْلادِهِ .

فَكَانَ إِذا مَا جَلَسَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ عَلَى فُرُشٍ لَهُ بِظِلالِ الْكَعْبَةِ ، وَأَوْلاَدُهُ يَجْلِسُونَ مِنْ حَوْلِ الْفُرُشِ إِجْلاَلاً مِنْهُمْ ، وَاحْتِراماً لأَبِيهِمْ ، وَأَتَى مُحَمَّدٌ إِلَى جَدِّهِ – قَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَأَجْلَسَهُ عَلَى الْفِراشِ بِجانِبِهِ ، وهُوَ يُرَبِّتُ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ حُبًّا وَعَطْفاً ! لَكِنْ وا أَسَفَاهُ ! فَلَقَدْ مَاتَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَيْضاً ، ومُحَمَّدٌ لا يَزَالُ ابْنَ ثَمانِي سَنَواتٍ ؛ وَحَزِنَ مُحَمَّدٌ عَلَى جَدِّهِ كَما حَزِنَ عَلَى أَبَوَيْهِ مِنْ قَبْلُ .

وَكانَ حُزْنُهُ عَلَى جَدِّهِ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِهِ عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ ؛ فَقَدْ شَبَّ وَتَرَعْرَعَ ، وَأَحَسَّ الْعَطْفَ ، وَقَدَّرَ الْحَنَانَ ؛ فَهُوَ كَذٰلِكَ يُقَدِّرُ الْفَقْدَ وَيُحِسُّ مَرارَةَ الْحِرْمَانِ .

فَلَمْ تَرْقَأْ لَهُ عَيْنٌ ، وَلَمْ يَجِفَّ لَهُ جَفْنٌ ، وَلَمْ يَكُفَّ لَهُ دَمْعٌ ، حَتَّى وُورِيَ جُسْمَانُ جَدِّهِ فِي مَقَرِّهِ الأَخِيرِ ! !

رقم الإيداع	١٩٩٩/١١٢٠٧
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5880-6

٧/٩٩/٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)